Al-Jāmi'ah: Journal of Islamic Studies
Vol. 61, no. 2 (2023), pp. 477-496, doi: 10.14421/ajis.2023.612.477-496

THE APPROACH OF IMAM ABDUL HAMID IBN BADIS TO SUFI METHODS

Belkheir Omrani
Research Center for Islamic Sciences and Civilization, Algeria
email: b.omrani@crsic.dz

Abstract

This research is about Shaikh Abdul Hamid ibn Badis, the president of the Algerian Association of Muslim Scholars, who led the reformist movement during the French occupation and was one of the leaders of reformation in the Muslim world. The research aims to reveal how the Shaikh dealt with the reality of Sufism and its spiritual authority and broad influence embedded in Algerian society. The author addresses issues within Algerian society during the French occupation, the position of the Shaikh as a man of satire in general, and his relationship with the elders' zawaya of Sufi methods. The research concludes that the Shaikh followed a middle ground in his dealings. He was clear in his opinions and convictions and expressed them through his writings and articles, while he had good connections with all the elders' methods. His approach was not to differentiate but to assemble and remove the differences that weakened the society's resistance towards the French occupation. As the Imam had been wise and advocative, he knew how to win the hearts and attitudes of his society.

[Tulisan ini membahas Syaikh Abdul Hamid ibn Badis, Pemimpin Asosiasi Ulama Muslim Aljazair, yang memimpin gerakan reformis pada masa pendudukan Perancis dan merupakan salah satu pemimpin reformasi di dunia Muslim. Penelitian ini bertujuan untuk mengungkap bagaimana sang Syaikh menyikapi realitas Tarekat serta otoritas spiritual dan pengaruhnya yang luas, yang tertanam dalam masyarakat Aljazair. Penulis membahas isu-isu yang terjadi di tengah masyarakat Aljazair selama pendudukan Perancis, posisi sang Syaikh sebagai satir secara umum, dan hubungannya dengan zawiyah-zawiyah Tarekat yang lebih tua.

Penelitian ini menyimpulkan bahwa Ibn Badis telah memilih jalan tengah. Pendapat dan keyakinannya jelas, dia mengungkapkannya melalui tulisan dan artikelnya, sementara hubungannya dengan semua zawiyah Tarekat dibina sangat baik. Pendekatannya bukan untuk membeda-bedakan tetapi untuk mengumpulkan dan menghilangkan perbedaan-perbedaan yang melemahkan perlawanan masyarakat terhadap pendudukan Perancis. Karena sang Imam adalah orang yang bijaksana dan advokatif, dia tahu bagaimana memenangkan hati dan sikap masyarakatnya.]

Keywords: Abdul Hamid ibn Badis, sufi methods, Sufism, the Algerian Association of Muslim Scholars.

منهج الإمام عبد الحميد بن باديس في التعامل مع الطرق الصوفية

بلخير عمراني
مركز البحث في العلوم الإسلامية والحضارة - الجزائر

ملخص

ينطلق هذا البحث من كون الإمام عبد الحميد بن باديس رئيسا لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين التي تزعمت التيار الإصلاحي خلال فترة الاحتلال الفرنسي، وواحدا من زعماء الإصلاح في العالم الإسلامي، ويستهدف البحث الكشف عن كيفية تعامل الشيخ مع واقع الطرق الصوفية المتجذرة في المجتمع الجزائري، والتي كان لها سلطة روحية ونفوذ واسع. فما حقيقة هذه العلاقة؟ وما هو منهج الإمام عبد الحميد بن باديس في تعامله مع الطرق الصوفية؟ تلك كانت أهم الإشكاليات التي حاولت الورقة الإجابة عنها، وذلك بالتطرق إلى واقع المجتمع الجزائري قبيل الاحتلال الفرنسي، ثم دراسة موقف الشيخ من رجال التصوف عموما، ثم البحث في علاقته مع شيوخ الزوايا الصوفية، وخلص البحث إلى أن الشيخ اتبع منهجا وسطا في تعاملاته، فقد كان واضحا في آرائه وقناعاته وعبر عنها من خلال كتاباته ومقالاته، في حين كانت له صلات طيبة بكل شيوخ الطرق، حيث كان منهجه التجميع لا التفريق، ومحاولة إزالة الخلافات التي تضعف الصف المقاوم للاحتلال، كما كان الإمام صاحب حكمة ودعوة، عرف كيف يكسب بها القلوب والمواقف.

الكلمات المفتاحية: عبد الحميد بن باديس، الطرق الصوفية، الزوايا، التصوّف، جمعية العلماء المسلمين الجزائريين.

أ. مقدمة

البحث في تاريخ الحركات الإصلاحية في العالم الإسلامي مهم جدا، وتجلية مواقف المصلحين من القضايا التي واجهوها في زمنهم يعطي نظرة أوضح عن مناهجهم في التعامل معها، ويظهر تجربة لابد من الاستفادة منها، إذ هناك أحداث تاريخية لا تزال تشكل مجالا خصبا للباحثين لإعطاء نظرة جديدة عنها، ولا تزال بحاجة إلى دراسات معمقة تفيد الحاضر والمستقبل.

لعل تاريخ الحركة الإصلاحية في الجزائر إبان الاحتلال الفرنسي هو الأكثر حاجة إلى هذه الدراسات التي تسبر أغواره، وتستنطق وثائقه، وتجلي العديد من المواقف التي اشتبهت على المؤرخين والسياسيين والمفكرين، سيما إذا وجدنا مواقف متباينة قد تحكّمها الظروف السياسية وظروف الاحتلال، كمواقف جمعية العلماء المسلمين الجزائريين السياسية، وكمواقفها من الجمعيات والأحزاب والطرق الصوفية التي كانت تتعامل معها، ففي مجال تعامل الإمام عبد الحميد بن باديس مع الطرق الصوفية اختلف الباحثون اختلافا شديدا، منهم من صنفه من التيار الوهابي الذي يعادي الطرق الصوفية كاملة، باعتبار المقالات التي كان يهاجم فيها الطرق وشيوخها، ومنهم من صنفه من الصوفية، باعتبار نشأته الصوفية، ومراسلاته وزياراته لشيوخ الطرق، ومدحه لهم أحيانا أخرى. وهو ما يستدعي تعميق البحث في هذه الجزئية من حياة الإمام لبيان علاقته مع شيوخ الطرق الصوفية، ولكشف منهج تعامله معها.

ب.التصوف والطرقية في الجزائر قبل الاحتلال الفرنسي

لا يمكن في هذا المقام أن نفصّل القول في تاريخ التصوف في الجزائر، ولا أن نذكر بدايات نشأة الطرق الصوفية فيها، ذلك أن المقام ههنا لا يتسع إلا لذكر بعض الإحصائيات والشواهد السريعة المهمّة، والتي تضعنا في صورة تخدم موضوع البحث، إذ لا يمكن أن نفهم طريقة تعامل الإمام عبد الحميد ابن باديس مع التصوف والطرق الصوفية دون أن نعرف واقعه.

الدراسات السابقة: تحدثت بعض الدراسات عن التصوف عند الإمام ابن باديس لكنها لم تفصّل في منهج الإمام في التعامل مع الطرق الصوفية، إذ إن قناعة ابن باديس بمسائل التصوف تختلف عن سياسته في التعامل مع الطرق الصوفية بشيوخها وأتباعها، بما يكشف جانبا مهما من تاريخ هذه الشخصية الدعوية البارزة في التاريخ الجزائري، ومن بين هذه الدراسات:

• كتاب الدكتور: مصطفى حلمي، (التصوف والاتجاه السلفي في العصر الحديث،)،

وقد تحدث فيه عن جوانب من علاقة الإمام ابن باديس بالصوفية، لكن مقالنا أكثر تركيزا ويحتوي على نصوص تبين هذه العلاقات ويحللها ويعطي نظرة أخرى عن شخصية ابن باديس.

- كتاب الدكتور أحمد محمود الجزار، (الإمام المجدد ابن باديس والتصوف)، وهو دراسة كبيرة في هذا الباب، وتعرض فيه إلى الكثير من المسائل المتعلقة بالتصوف عند ابن باديس وعلاقته بالطرق الصوفية، غير أن هناك وثائق أخرى نشرت بعد صدوره تكشف زوايا أخرى من تعامل الإمام مع الطرق الصوفية آنذاك.
- مقال لي نشر في مجلة كلية الشريعة والدراسات الإسلامية بجامعة قطر بجويلية ٢٠٢٣ المجلد ٤١ عدد ٢ بعنوان: (موقف الإمام عبد الحميد بن باديس من التصوف) لكنه يتطرق إلى قناعات الإمام حول التصوف ولا يتناول منهجه في التعامل مع الطرق الصوفية.

١. مكانة الطرق الصوفية في الجزائر قبل الاحتلال الفرنسي

يذكر المؤرخ أبو القاسم سعد الله أن عدد الطرق الصوفية الفاعلة في الجزائر إبان الاحتلال الفرنسي بلغ أكثر من ستة وعشرين (٢٦)، منها فقط حوالي أربعة أنشئت في العهد الاستعماري، كالسنوسية والعليوية، والباقي كان موجودا منذ العهد العثماني.[١]

واذا ما عدنا إلى الدراسات الفرنسية المنجزة حول الجزائر، فإننا نجد السيد لويس رين قد ذكر في كتابه (مرابطون وإخوان) أنه بينما كان عدد الجزائريين (الأهالي) هو ٢,٨٤٦,٧٥٧، فإن عدد الزوايا فيهم قد بلغ ٣٥٥ زاوية[٢] منتشرة عبر القطر كله، كما هناك ١,٩٥٥ مقدما، و ١٦٧,٠١٩ من الإخوان أو التابعين المعروفين للفرنسيين.[٣]

ارتبط اسم الزاوية بالطريقة الصوفية، وتداخلت في ذلك مصطلحات: الزوايا، والرباطات، والطرق الصوفية، حتى غدت كأنها أسماء لمسمى واحد، مع أنها في الأصل كانت مختلفة الوظائف دون تضاد، فقد ساهمت الخصوصية الصوفية في تعميق شعورهم (أي الصوفية) بالاغتراب فلم يجدوا مثابة للطمأنينة إلا نظراءهم وأكفاءهم في الوجدان والسلوك، وتوارثوا عن سلفهم الروابط الروحية وآثار اللقاءات العرفانية الخاصة فانتهوا – تلقائيا – إلى هيكلة وجودهم معنويا تحت سلطان الطريقة، وإلى تفاعلهم – مكانيا – في كنف الزوايا والرباطات عساها تضمن بقاءهم.[٤] وفي المغرب العربي وفي الجزائر خصوصا فقد استبدت الزوايا بكل الوظائف الممكنة، واستأثرت بكل مقاليد السلطة الروحية

[١] أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، دار عالم المعرفة، الجزائر، ط ٢٠١٧، ج٤/٢٨.
[٢] عدد الزوايا هنا لا يعني بالضرورة عدد الطرق، فقد تتبع أكثر من زاوية طريقة واحدة.
[٣] المصدر نفسه، ج٤/٢٩.
[٤] محمد الطيبي، الرؤية الخلدونية للمشيخة الصوفية : دراسة في السلطان الروحي عند ابن خلدون، رسالة ماجستير، جامعة الجزائر٢، إشراف أ.د رشيد بوسعادة، ٢٠٠٨/٢٠٠٩، ص ٢٧٥.

لتباشر وظائفها.[٥]

أما لفظة المرابط ففي الأصل تعود إلى الرباط وهو مكان حراسة الثغور، والمرابط هو المجاهد، وكانت هذه الرباطات مكانا للعبادة والتعلم كذلك، ومن أشهر الرباطات التي تأثرت بها بلاد المغرب العربي رباط الفقيه عبد الله بن ياسين الجزولي على نهر السنغال، وهو أصل تسمية دولة المرابطين الملثمين في المغرب العربي والنواة الأولى لها كما هو معروف من نشأة دولة المرابطين،[٦] ويذكر أبو القاسم سعد الله أن المرابطين كانوا مستقلين عن الزوايا الصوفية، ولهم عائلات معروفة توارثت صفة المرابطين عن آبائهم وأجدادهم، ولمكانتهم فإن الناس كانوا يوقفون على زواياهم الأوقاف الكثيرة، وللمرابط حق الزيارات كما تقام عند الأضرحة الحفلات الموسمية كالوعدة ونحوها،[٧] ومن أجل هذه المكانة للمرابطين فقد استغل الاحتلال الفرنسي المرابطين لخدمة أهدافه، ونجح في تسخير عدد منهم لتخدير العامة، كما حاول تحوير مفهوم المرابط من الجهاد إلى الشعوذة والدجل والخرافة.

٢. الطرق الصوفية بين الجهاد والاحتواء الفرنسي

لا يمكن لأحد أن ينكر الدور الذي قامت به الطرق الصوفية في مقاومة الاحتلال، فقد قاد شيوخها الأوائل ثورات متتالية دفاعا عن الإسلام والأرض والعرض بعد استسلام الجيش الرسمي، ولا أدل على ذلك من مقاومة الأمير عبد القادر، والشيخ بوعمامة، وموسى بن الحسن الدرقاوي،[٨] وغيرهم من الشيوخ الذين اضطلعوا بفرض الجهاد.

في مقابل ذلك فإن الاحتلال الفرنسي وبعد تفطنه إلى أهمية الزوايا في قيادة المقاومة ضده، عمل على تطويعها، وتفكيكها، وتحريف غاياتها، واستخدم كل الطرق لتحييدها من مهمة الجهاد، فقد بقي الفرنسيون مدة تزيد على خمس عشرة سنة وهم لا يدركون أهمية دور هذه الطرق ولا أسرارها وألغازها إلى أن ألف لهم «دي نوفو» كتاب «الطرق الصوفية عند مسلمي الجزائر» سنة ١٨٤٥.[٩] وهكذا تحولت بعض الطرق إلى وسائل بأيدي الاحتلال تنفذ تعليماته، وتأتمر بأوامره، وتحولت أخرى إلى مخدر للشعب،

---

[٥] المصدر نفسه، ٢٨١.

[٦] المصدر نفسه، ص ٢٨٠.

[٧] أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، بتصرف، ج٤/ ١٤، ١٥.

[٨] لمزيد من التفصيل في مقاومة الشيخ موسى بن الحسن الدرقاوي يراجع: بلخضر شولي، محمد شبيري، حكيم شويحة، محمد مويسة، عمر بن سالم، المسعود بن سالم، بلقاسم السعيد خالدي، مقاومة الحاج موسى بن الحسن المدني الدرقاوي، دار الجلفة أنفو للنشر والتوزيع، الجلفة، الجزائر، ط١ ٢٠١٧.

[٩] انظر أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج٢٩/٤، ٣٠، ٣١.

حتى اشتهر عند بعضهم قولهم: «ناكل في القوت ونستنى في الموت»،[١٠] وكانت أخرى مجرد مصدر للثراء والاغتناء، ومن ذلك ما وثقه المفكر مالك بن نبي عن القادرية في مدينة آفلو فيقول: «فالناس يشهدون في كل عام موكب القادرية المهيب يأتي إلى آفلو: راية ترفرف وعلى رأسها ابن شيخ الطريقة (المقدم) يلبس الثياب الخضراء من رأسه إلى قدمه، إنّها ثياب أهل الجنة، وهو ذو ذكاء شيطاني يعرف كيف يبتز من السذاجة العامة كل ما يريد، لقد كان يملك في تلك الفترة في وادي سوف، بستانا للنخيل مؤلفا من حوالي ألف نخلة، وهو من هبات أولئكم الذين يريدون أن يدخلوا في موكبه».[١١] ولم يسلم من هذه الطرق والزوايا إلا بقية بقيت ثابتة على مبادئها، وكانت قلاعا حصينة لحماية الهوية والدفاع عن الوطن، وشاركت في كل مراحل الجهاد الجزائري ضد الفرنسيين.

هذه نبذة قصيرة عن الأوضاع السائدة قبيل الاحتلال الفرنسي ومع بداياته، والأمر أوسع من أن يحصر في مقال، لكن حسبنا أننا حاولنا تسليط الضوء على نفوذ الطرقية وانتشارها في الجزائر، واستغلال الاحتلال لها، حتى يتسنى لنا فهم طريقة تعامل الإمام ابن باديس مع هذا الواقع.

ج. موقف ابن باديس من رجال التصوّف

لم يتعامل ابن باديس مع الأشخاص والهيئات من منطلق قناعاته الخاصة، ولم يكن في مشروعه الإصلاحي معزولا عن مجتمعه، بل إنه رأى نفسه داعيا إلى الله وجب عليه أن يسلك سلوك الحكمة والموعظة الحسنة، فحاول إيجاد مساحات للمشترك بغية التعاون، وحاول أن يجمع كل الجهود – على اختلافها – من أجل الجزائر، ومن أجل محاربة الاحتلال الفرنسي، وأدرك يقينا أن التنازع سبب الفشل، وأن الفرقة لا تخدم إلا الاحتلال. لذلك سعى ابن باديس إلى التآلف، وركّز حربه على كلّ متعاون مع فرنسا وخادم لها، وبذل في سبيل ذلك وسعه وجهده ووقته. وفيما يلي نبيّن موقفه من رجال التصوف الأوائل وشيوخ الزهد في القرون الأولى، ثم موقفه من الشيوخ المتأخرين ومؤسسي الطرق والمعاصرين له، ثم موقفه من الطرق الصوفية كهيئات، إذ في بيان ذلك تجلية لمجموعة من الحقائق.

١. موقفه من شيوخ التصوف الأوائل

كان ابن باديس يجلّ أئمة التصوّف الأوائل ويراهم قدوة للسالكين، ويثني عليهم

[١٠] عمار طالبي، آثار ابن باديس، طبع الشركة الجزائرية، الجزائر، ط٣ ١٤١٧ هـ ١٩٩٧م، المقدمة ج١/١٨.

[١١] مالك بن نبي، مذكرات شاهد قرن، القسم الأول الطفل (١٩٠٥ – ١٩٣٠م)، دار الوعي للنشر والتوزيع ، الجزائر، ط١، ١٤٣٤ هـ ٢٠١٣م، ص ١٨١.

في كل موضع تكلم فيه عن التصوّف، ويستشهد بأقوالهم، ويذكّر بأحوالهم، فلقد كان يستشهد بالرسالة القشيرية، ويراها مرجعا في نقل التصوف الصحيح، ومن ذلك ما نقله عنها من نفي شيوخ الزهد لادعاء العصمة أو التصرف في الكون، يقول: «مضوا في سبيلهم رحمة الله عليهم لا يدعون لأنفسهم سلطة خاصة على الخلق ولا تصرفا في الكون ولا علما بالغيب ولا يضمنون لأحد من أبنائهم أو أتباعهم فوز الجنة ولا نجاة من نار، ولا يسمعون كلامهم في الاستدلال به بالكتاب والسنة، ولا يدعون لأنفسهم في قول ولا عمل شيئا من العصمة، بل يصرحون بنفي هذه الدعاوي كلها ويتبرءون من أهلها، ومن وقف على شيء من كلام أئمة العلم في مثل «جامع» ابن عبد البر، وشيء من كلام شيوخ الزهد في رسالة القشيري عرف حقيقة ما نقول، ووقف على ما يسر علينا جلبه في مختصر هذا المقال».[١٢]

ويثني ابن باديس على رجال الرسالة القشيرية، ويعتبرهم حجة على كل من ينتسب إلى التصوف، فيقول: «ومن أكثر الناس محافظة على الأدب وتحريضا عليه ووصاية به شيوخ الزهد والعلم من أئمة التصوف العارفين كرجال الرسالة القشيرية الذين أبقى الله بعظيم فضله على الاسلام وجميل صنعه لنصرة الدين كلامهم حجة على كل من ينتسب الى طريقتهم في مثل هاته الأزمان»،[١٣] وتراه في مواضع كثيرة يستشهد بأقوال أئمة التصوف، فاستشهد بعبد الله بن المبارك، وبأبي حفص الحداد، وبأبي علي الدقّاق، وأبي يزيد البسطامي، وعبد الغني النابلسي، وهو ما يدل على احترامه الكبير لهم، واعتبارهم قدوة للسالكين والمتصوفين.

٢. علاقة الشيخ بشيوخ الطرق الصوفية

لم تمنع مقالات ابن باديس الحادة – أحيانا – على الطرقية من أن تكون له روابط وصلات بشيوخ الطرق في زمانه، أو من احترامه لمؤسسي الطرق، مع نصح وإرشاد، ومحاولة للجمع لا التفريق، وفيما يلي نذكر بعضا من النصوص التي توثق هذه المواقف:

- اعتذاره للشيخ التجاني. بالرغم من أن ابن باديس كتب مقالات عن التجانية، ونقد أوضاعها، إلا أنه في مقال له في المنتقد، اعتذر لمؤسس الطريقة، وحاول تبرئته مما أدخل على التجانية بعده، فيقول: «ولا أذهب بالقارئ بعيدا، ولا أحمّله من هذا كثيرا، بل أقتصر له على نقل واحد عن شيخ كبير عالم زاهد وهو سيدي أحمد التجاني رضي الله عنه، فلقد قال: «ما وجدتموه من كلامي موافقا للكتاب والسنة فاقبلوه، وما وجدتموه مخالفا فاطرحوه» أو ما هذا معناه، فرحم الله هذا الرجل العظيم وأمثاله الصالحين وجازاهم عن الإسلام والمسلمين خيرا، فقد بروا ونصحوا ونجوا بهذه الكلمة

[١٢] جريدة المنتقد، (أصدرها الشيخ ابن باديس) السنة الأولى ١٩٢٥، العدد ١٣ (٢٤ سبتمبر ١٩٢٥). ص ٥٣.

[١٣] عمار طالبي، آثار ابن باديس، ج٣/١٥٦.

ومثلها من كل تبعة تورط فيها المتورطون من بعدهم من عند أنفسهم»،[١٤] ولا شك أن هذا الموقف من ابن باديس يحمل دلالات كثيرة، منها حسن ظنه بشيوخ الطرق، وكذا إنكاره لما يراه مخالفا للكتاب والسنة.

- علاقته بالشيخ الطاهر العبيدي الرحماني. علاقة الإمام ابن باديس بالشيخ الطاهر العبيدي علاقة وثيقة، وتميزت بحميمية أظهرتها المراسلات المتبادلة بينهما، وقد كان الشيخ العبيدي واحدا من أعلام الفتوى في وادي سوف، وواحدا من علماء الطريقة الرحمانية التي ألف فيها نصيحته الشهيرة «النصيحة العزوزية في نصرة الأولياء والصوفية»، كما كان الشيخ أحد خريجي جامع الزيتونة بتونس، ولذلك كانت العلاقة بينه وبين الشيخ ابن باديس وطيدة جعلت الإمام يقرظ له منظومته «قطر الندى وبل الصدى»،[١٥] وكذا يخصه بقصائد مدح وثناء، ومن ذلك قوله في تقريظه على منظومة «قطر الندى وبل الصدى»:

ذي درر حسنة التنضيد سالمة من وصمة التعقيد

جامعة للقصد والمزيد تدني الجنى لكل مستفيد

من نظم زين العلماء العبيدي جازاه رب الناس من مفيد

بالعلم والعمل والتأييد.[١٦]

وكذلك كان إجلال الشيخ العبيدي لابن باديس كبيرا، فقد خصه بقصيدة من اثنين وعشرين بيتا عند زيارته له في تقرت،[١٧] فجاء فيها:

بروحي جليلا حل (تقرتنا) النضرا يفوت شذا أخلاقه المسك والعطرا

فأما محياه المحيي فإن من يشبهه بالبدر مرتكب أمرا

أفي البدر من أخلاقه وعلومه؟ وهل فيه تحرير التقارير والأقرا؟

---

[١٤] جريدة المنتقد، العدد ١٣، ٢٤ سبتمبر ١٩٢٥. ص ٥٣.

[١٥] ذكر الدكتور أبو القاسم سعد الله في كتابه (تجارب في الأدب والرحلة، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ط ١٩٨٣. هامش ص ١٠٠) أن الشيخ ابن باديس قرّظ النصيحة العزوزية، وإلى نفس الرأي ذهب الدكتور عبد الله حمادي في كتابه (دراسات في الأدب المغربي القديم، دار البعث، قسنطينة، الجزائر، ط١ ١٤٠٦ هـ، ١٩٨٦م ص ٣٥٥)، لكنني اطلعت على نسخة من كتاب الشيخ العبيدي زودني بها الأستاذ الباحث: محمد بسكر، فوجدت أن تقريظ الإمام كان لمنظومة «قطر الندى وبل الصدى»، وهو ما أثبت في المقدمة ص٦.

[١٦] الطاهر العبيدي، النصيحة العزوزية في نصرة الأولياء والصوفية ونصيحة الشباب المزيحة للسحب والضباب، الناشر: أبو مدين الحاج محمد بن أزوين الكتبي الجلالي، ص ٧.

[١٧] ولاية بالجنوب الجزائري.

ولكنه قد ضمّ مع علمه تقى ويسلك في التعليم منهجه الأحرى[١٨]

وهذه القصائد والمراسلات تبيّن أن توجه كل واحد منهما لم يمنعه من التواصل والمودة، وأن ابن باديس كان لا يجد الحرج في ذلك، بل إنه وجه للشيخ العبيدي دعوة للانضمام إلى جمعية العلماء المسلمين عند تأسيسها.

- علاقته بالشيخ عبد الرحمن الديسي الرحماني. في جواب على رسالة للشيخ ابن باديس إلى الشيخ عبد الرحمن الديسي يطلب فيها رأيه حول مسألة «الشهادة عبر الهاتف»، يبدو فيها أن الشيخ قد أبدى رأيه في المسألة وحققها، لكنه أراد معرفة رأي الشيخ فيها، فكان الجواب من الشيخ الديسي حاملا لعبارات كثيرة تدلنا على العلاقة التي كانت تربطهما ببعض، وإن كنا لا نملك – فيما نعلم – الرسالة الموجهة من ابن باديس إلى الشيخ الديسي، إلا أن ثناء الشيخ الديسي على الإمام كان ينبئ عن إجلال وتوقير بينهما، فقد جاء فيها «محقق العلوم المبرز في المنطوق منها والمفهوم العلامة الشيخ سيدي عبد الحميد (ووالدكم المبرور والإخوة الفضلاء أدام الله حفظكم وعزكم وأجزل من مواهبه اللدنية حظكم)، بعد إهداء أطيب تحية وجوامع أدعية وإخلاص مودة قلبية».[١٩]

وكان قد مدحه من قبل في أبيات أخرى يقول فيها:

إلى عبد الحميد مزيد شوقي فريد العصر نبراس الزمان

كريم الأصل موفور المزايا أثيل المجد من قوم هجان

لهم في الفضل أخبار طوال تعنعن بالصحاح وبالحسان[٢٠]

وهذه المراسلات تثبت العلاقات الوطيدة التي كانت تربط هؤلاء الشيوخ بالإمام عبد الحميد بن باديس، كما تثبت علمه وفقهه، وأنه كان يطلب رأي العلماء في زمانه في المسائل الفقهية التي يفتي فيها أحيانا.

- ثناؤه على والد الشيخ محمد العيد آل خليفة. بالرغم من أن والد الشيخ محمد العيد آل خليفة كان تجانيا، وبالرغم من أنه كان مقدما للطريقة، إلا أنه كان يحب شيوخ الإصلاح، ويحب العلم والعلماء، إذ ينقل عنه ابنه شاعر جمعية العلماء المسلمين بأنه كان: «مصلحا يحب العلم والإصلاح ويجل العلماء والمصلحين وينظر إليهم نظرته إلى مشايخه»، وكان ابن باديس ينزل ضيفا مكرما على شرف والد الشاعر، فأقره على صوفيته بالصورة التي رآه عليها، وعلّق على ذلك وهو يخاطب الشاعر بما في هذا المعنى: «لو كان كل المتصوفة في البلاد كوالدك، ورعا وتقوى وتمسكا سليما بأصول الدين،

---

[١٨] أبو القاسم سعد الله، تجارب في الأدب والرحلة، ص ١٠٢.

[١٩] تقي الدين بوكعبر ودحو فغرور، رسالة الشيخ عبد الرحمن الديسي إلى الشيخ عبد الحميد بن باديس، مجلة العلوم الإنسانية، جامعة وهران، مجلد ٥، العدد ٢، ص ١١٦.

[٢٠] المصدر نفسه، ص ١١٥.

ومفهومه الصحيح، وإخلاصا للإصلاح لما كان ما كان بين رجال الإصلاح وبين أتباع الطرق المزيّفة، ولكانت الجهود واحدة».[٢١]

ليست هذه إلا بعض الجوانب من علاقات الشيخ عبد الحميد بن باديس مع العلماء وشيوخ الطرق الصوفية، وهي علاقات اتسمت بالود والاحترام والتقدير، وامتزجت بالتبادل المعرفي والعلمي، ولسنا هنا ننفي بعض جوانب الصدام التي ظهرت خاصة في مقالات الشيخ في المنتقد والشهاب، لكنها وجهت أكثر ما وجهت لمحاربة من يخدم الاستعمار، أو يتعيّش بالتصوّف، أو للمناقشة العلمية بالحجة والدليل.

٣. علاقة الشيخ مع الزوايا والطرق الصوفية.

تميزت علاقة الشيخ ابن باديس مع بعض الطرق الصوفية بالود والاحترام والتقدير، بناء على العلاقات الطيبة التي وطّدها الإمام مع شيوخ الطرق، كما تميزت مع أخرى بالصدام والإنكار، بل إنه يمكن رصد اختلاف العلاقة مع الطريقة الواحدة من زمن إلى زمن، ومن موقف إلى موقف، ومن الحدة أحيانا إلى اللين أحيانا أخرى.

لابد أن نشير إلى أنه من الواجب فصل موقف الشيخ ابن باديس عن مواقف جمعية العلماء، حتى نتفادى التعميم، وحتى لا نحمّل الشيخ مواقف المتشددين من أعضاء الجمعية، ولنميز مواقف ابن باديس من مواقف غيره.

• علاقات الود والاحترام.

لا شكّ أن النشأة الصوفية لابن باديس أكسبته قابلية عند الطرق الصوفية، ولا شكّ أن العلاقات الخاصة التي بناها ابن باديس مع شيوخ الطرق، سواء منها أثناء الطلب والتحصيل، أو رحلاته عبر الوطن في إطار مشروعه الإصلاحي، جعلت ابن باديس محل احترام وتقدير، ولذلك وجد الترحاب أينما حلّ وارتحل، ويمكننا فيما يلي أن نشير إلى بعض زياراته لهذه الزوايا وترحيب شيوخها به:

من أبرز الزيارات التي نذكرها هنا زيارة الشيخ ابن باديس رحمه الله إلى زاوية طولقة، للتبرك بضريح الشيخين بن عزوز وعلي بن عمر سنة ١٩٢٥ أو ١٩٢٦م. وفي تلكم الزيارة نظم قصيدته التي نشرها في جريدة النجاح سنة ١٩٢٦م،[٢٢] ويذكر الأستاذ سليمان صيد أن الشيخ ابن باديس لما زار زاوية طولقة تلا درسا موضوعه (أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ) يونس ٦٢، ولم يتعرّض لإنكار

[٢١] سمير سمراد، مواقف المصلحين الجزائريين من رسوم المتصوفين وأوضاع الطرقيين، الجزائر، د ط ت، ص ١٢٣.

[٢٢] عبد الله حمادي، دراسات في الأدب المغربي القديم، دار البعث، قسنطينة، الجزائر، ط١ ١٤٠٦ هـ، ١٩٨٦م، ص ٣٥٤.

الزيارة.[٢٣]

أما زيارته للغرب الجزائري فقد كانت حافلة بزيارة الزوايا والطرق، وقد وثقها الشيخ في مقالاته، وكانت على فترات متباعدة، فقد زارها سنة ١٩١٩م وزار يومها ضريح الشيخ أبي مدين شعيب رحمه الله، ونزل ضيفا على القاضي شعيب بن علي فاستجازه وأجازه، وحلّ الشيخ بتلمسان لأيام معدودة في أواخر شوال ١٣٤٥ هـ/أفريل ١٩٢٧م في غفلة من أهلها رفقة الأديب محمد بوشمال، ورغم ذلك إلا أن الخبر انتشر بسرعة، وتهافتت عليه دعوات الضيافة، أين حظي باستقبال كبير من طرف الطرقيين، وقد ورد في جريدة البلاغ في ذلك: «بعدما أضاف عند جماعة من الدرقاويين استقر به النوى عند السادة التجانيين».[٢٤]

أما زيارته للزاوية العليوية فقد كانت مميزة ولها دلالات كبيرة، فقد زارها الشيخ سنة ١٩٣١م، وأكرم بها غاية الإكرام، وكتب هو عن ذلك مثنيا على حفاوة الاستقبال، وحسن الأدب.[٢٥] ولهذه الزيارة دلالات كبيرة على التسامح الذي كان بين الشيخ ابن باديس والشيخ محمد بن عليوة، هذا إذا علمنا أن محاولة اغتيال الإمام كانت سنة ١٩٢٦م والتي تبين فيما أن الذي حاول الاغتيال كان من أتباع الزاوية العليوية، لذلك كانت الزيارة سنة ١٩٣١م ذات أهمّية بالغة في التعرّف على سماحة نفس الإمام، وأنه لم يعمم الحادثة على الزاوية كلها، ولم يحمّلها اثم واحد من أتباعها، كما أنه كان يعيش كما قال هو: «للإسلام وللجزائر».

ولقد تعاون الشيخ مع الزاوية العليوية في مواطن أخرى سابقة، ومن ذلك ما ذكرته جريدة البلاغ من أن الشيخ العلوي كاتبه في شأن مساعدة مادية لجماعة كانوا متنصّرين وتابوا، وأنهم كانوا محتاجين إلى العون حتى يثبتوا، فكان الرد من الإمام كما جاء في البلاغ: «أما الأستاذ عبد الحميد بن باديس فقد توصّل بالمكتوب الذي كان كاتبه به الأستاذ العلوي وقد سرّ بذلك سرورا عظيما وقد شكر سعي الأستاذ وفعله معنا بما لا مزيد عليه ولم يقتصر على ذلك حتى واصلنا بإعانة قدرها (١٠٠) فرنك جزاه الله خيرا».[٢٦]

ولقد ذكر الإمام أيضا زيارته لزاوية الشيخ ابن طكوك في مستغانم في بوقيراط

[٢٣] سليمان الصيد، تاريخ الشيخ علي بن عمر شيخ زاوية طولقة الرحمانية، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، بوزريعة، الجزائر، د ط ت، ص ٧٥، ٧٦.

[٢٤] عبد الرحمان بن بوزيان، الزيارات التاريخية للشيخ عبد الحميد بن باديس لتلمسان وأثرها في الحركة الإصلاحية ١٩٢٣ – ١٩٣٧م، مجلة عصور الجديدة، جامعة وهران، العدد ٢١- ٢٢ ، ماي ١٤٣٧ هـ ٢٠١٦ م، ص ٢٨١.

[٢٥] عمار طالبي، آثار ابن باديس، ج٣١١/٤، ٣١٢.

[٢٦] جريدة البلاغ الجزائري، العدد ١٢٨، ١٨ صفر ١٣٤٨ هـ ٢٦ جويلية ١٩٢٩م، ص ٣.

فاستضافه الحاج مصطفى أحد الإخوة الثلاثة أصحاب الزاوية وأكرمه الشيخ وبات ليلته عندهم، وحدثه عن الجمعية وأهدافها فأظهر ابتهاجه بها وقدم مائتي فرنك لإعانتها.[٢٧]

هكذا كانت العلاقات بين الشيخ والطرق الصوفية، وهكذا كان يسعى إلى إيجاد الصلات ومساحات التعاون، وكان همّه أن يتحد الجميع لخدمة الإسلام والجزائر والعربية، وأن ينبذوا الخلاف والفرقة، ولذلك دعا كل الطرق أثناء جولاته وزياراته إلى الانضمام إلى الجمعية، فاستجاب بعضهم وامتنع آخرون، وانسحب آخرون بعد الانضمام، كالطيب المهاجي، وبوعبد الله البطيوي، اللذين كانا في الهيئة العامة لجمعية العلماء المسلمين.[٢٨]

د. مواقف الإنكار والصدام.

لم يكن ابن باديس في ائتلاف كامل مع الطرق الصوفية، ولم تكن دعوته الإصلاحية خالية من المثبطين والمخذّلين، ولم يكن مشروعه بعيدا عن أنظار الاحتلال الفرنسي، لذلك واجه الشيخ عقبات كثيرة كان يعلم أنه سيواجهها، واصطدم ببعض المنتفعين الذين رأوا في دعوته خطرا على مصالحهم وامتيازاتهم، وتعرض للأذى والتشويه والتهم؛ حتى بلغ بأعدائه لتدبير محاولة اغتيال له. ومن الإنصاف والموضوعية أن نذكر مواقف الإنكار التي واجه بها الإمام انحرافات التصوّف والطرق الصوفية، وأن نذكر مواقف الصدام التي واجهها في سبيل نجاح مشروعه الإصلاحي حتى تكتمل زوايا النظر والبحث.

١. هجومه على أوضاع الطرق الصوفية وإنكاره عليها.

لقد واجه الإمام ابن باديس الأوضاع الطرقية من الناحية العلمية والاعتقادية بكل شجاعة، وكان في مسائل العلم والحق لا يحابي أحدا، ويقول رأيه بكل صراحة وجرأة، ففي رسالة عنونها بـ «جواب صريح» تعرّض الإمام إلى بعض المسائل التي تنسب إلى الطريقة التجانية، كالاعتقاد في أن قراءة صلاة الفاتح أفضل من قراءة القرآن ستة آلاف مرة، وأن مؤسس الطريقة خاتم الأولياء، وأن أتباعها في الجنة، فناقش المسائل من الناحية العلمية أولا، ثم شن هجمة على الطريقة وما ينسب إليها، حتى قال: «فالمندمج في الطريقة التجانية على هذه العقائد ضال كافر. والمندمج فيها دون هذه العقائد عليه إثم من كثر سواد البدعة والضلال» إلى أن يقول «لهذه وغيره نقول إن الطريقة التجانية ليست كسائر الطرق في بدعها، والمشاهد اليوم من أضرارها، ودعنا من حديث ماضيها بما فيه، بل هي طريقة موضوعة لهدم الإسلام تحت اسم الإسلام، فإن كتبها وأقوال أصحاب صاحبها

[٢٧] عمار طالبي، آثار ابن باديس، ج٤/٣١٤.

[٢٨] مقال للدكتور بوزيد بومدين.

مطبقة على هذه الأفكار وأكثر منها فلا تجد في كتبهم ما هو خالص منها حتى يمكن أن يكون هو الأصل وأن غيره مدسوس وإنك لتجد هذه الكتب محل الرضى والقبول والتقديس عند جميع أتباع الطريقة عالمهم وجاهلهم».[٢٩]

هذا بالنسبة للتجانية، أما بالنسبة للطريقة العليوية فقد شن الإمام ابن باديس على شيخها هجمة شرسة، عندما تعرّض إلى مقام النبوة في قصيدة كتبها، فكان رد الشيخ شديدا، وعنون مقاله بـ «رسالة جواب سؤال عن سوء مقال»، وبيّن فيها سوء الأدب مع النبي صلى الله عليه وسلم، وشنع عليه أيما تشنيع، فحازت الرسالة تقريظ عدد من العلماء من شيوخ ابن باديس رحمهم الله أجمعين.[٣٠] وقد كان في أكثر من موضع يردّ على الطريقة العليوية وأفكارها، ويفند مقالاتهم، ويناقش ما يكتبونه في جريدة البلاغ، لكن أكثر مقال جرأة هو مقاله بالشهاب والذي اتهم فيه الطريقة العليوية بعمل القاديانية في الجزائر، فعنون المقال بـ «العليوية بالجزائر أخت القاديانية بالهند وشبه الشيء منجذب إليه»،[٣١] وكان أعنف مقال كتبه في هذه الطريقة، ولعل الردود على العليوية حازت قسطا كبيرا من النقاشات والمقالات التي سوّدها الشيخ عبد الحميد.

لقد حارب الإمام كل مظاهر التعيّش من التصوّف، وشن حملة على من اتخذوا التصوّف والولاية طريقا إلى الاغتناء وتكوين الثروة، ورأى أن الأوضاع الطرقية اليوم غير ما كانت عليه بالأمس، وأن من الناس من استغل هذه الأوضاع ليعبّد الناس له، وليحول سذاجة العامة إلى مصدر للمال، فقال: «الأوضاع الطرقية بدعة لم يعرفها السلف ومبناها كلها على الغلو في الشيخ والتحيز لأتباع الشيخ وخدمة دار الشيخ وأولاد الشيخ إلى ما هناك من استغلال».[٣٢] بل إنه في موضع آخر بدا وكأنه يتبرأ من كل الطرق، ويعلن يأسه من التعاون معها، فيقول: «عرفت شيوخ الطرق أوقاتًا ، ثم فارقتهم بَتَاتًا ، وما عرفتهم – علم الله – إلا لأخدم معهم الجزائر بالإسلام والعربية أو أعمل معهم في سبيل الإسلام والعربية والجزائر ، وما فارقتهم حتى عرفت منهم أنهم مذهوب بهم في غير هذه السبيل».[٣٣]

كانت هذه بعض مواقف الإنكار التي بثها الشيخ ابن باديس، والتي كتبها في

---

[٢٩] عمار طالبي، آثار ابن باديس، ج٣/١٤٨.

[٣٠] المصدر نفسه، ج٣/ ١٥٢.

[٣١] مجلة الشهاب، العدد ٩٧، ١٧ ذو القعدة ١٣٤٥ هـ ٢٠ ماي ١٩٢٧، ص ١٠٧٥.

[٣٢] عمار طالبي، آثار ابن باديس، ج٣/١٣٣.

[٣٣] آثار الإمام عبد الحميد بن باديس رئيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، مطبوعات وزارة الشؤون الدينية، ج٦/٣٠٤ نقلا عن أنيسة زغدود، إسهامات ابن باديس في تجديد العقيدة، أطروحة دكتوراه جامعة باتنة، إشراف الدكتور: مولود سعادة، الموسم ١٤٣٣- ١٤٣٤ هـ، ٢٠١٢ – ٢٠١٣م. ص ٣٧٧.

مواطن كثيرة لا سيما الشهاب، والأمثلة عليها كثيرة لا تكفيها هذه الدراسة، وهي تنبئ أن الشيخ لم يكن مداهنا فيما يراه حقا، ولم يكن يكتم مواقفه، بل إنه ذمّ غيره من العلماء عندما أحس منهم عدم التصريح، وتخفيف الخطاب تجاه القضايا الواضحة.

٢. مواقف الصدام:

لعل أبرز موقفين نذكرهما هنا هما حادثة محاولة اغتيال الإمام والتي كان لها وقع كبير، ووثقها ابن باديس بنفسه، والثانية ظروف تأسيس جمعية علماء السنة المنشقة عن الجمعية، والتي أسسها التيار الصوفي المنشق عن الجمعية.

• محاولة اغتيال الإمام ابن باديس

تعرّض الشيخ عبد الحميد بن باديس في ١٤ ديسمبر ١٩٢٦م إلى محاولة اغتيال كادت تودي بحياته، وكاد يدفع ثمن مواقفه من الطرق الصوفية وأتباعها، وهي الحادثة التي وثقها هو في مجلة الشهاب ووثقتها أيضا مجلة (لاديباش دو كونستونتين) وكتب عنها فيما بعد أيضا محمد الصالح بن عتيق والشيخ أحمد حماني، وسأنقل ملخص الحادثة من كتاب «صراع بين السنة والبدعة» للشيخ أحمد حماني:

> في ليلة الأربعاء ٩ جمادى الآخرة ١٣٤٥ هـ ١٤ ديسمبر ١٩٢٦م الساعة السابعة مساء كمن الجاني للشيخ عبد الحميد بن باديس في طريق داره بعد خروجه من درس القرآن العزيز، وفاجأه بضربتين بدبوسة، الأولى على الرأس والثانية تحت العين، وكانت الأولى قوية للغاية أراد بها الجاني إسقاط الأستاذ للقضاء عليه.
>
> لكن الشيخ أمسك بيدي الجاني التي فيهما الدبوسة والسكين، وبقيا يتدافعان في وسط الدرج، فانتصر الإمام وصعد به وهو يستغيث حتى صار الجاني يحاول الهروب بعد أن كان يحاول القتل، ولقوة الضربتين فشل الأستاذ. أما الجاني فحاول الهروب لكن باحثين عنه أمسكوه وكادوا يفتكون به لولا أن منعهم الشيخ من ذلك، إلى أن أتت الشرطة وأمسكت بالجاني، وحمل الشيخ إلى الطبيب لعلاجه.

وقد تبين بعد التحقيقات أن الجاني كان له مساعدون كانوا ينوون فعل ما فعل، وأنهم من أتباع الطريقة العليوية، التي طالما شن عليها الإمام هجوما في جريدة الشهاب.[٣٤] لكن الشيخ عفا عن الجاني وأراد العفو عنه في المحكمة لولا رفض أخيه الذي تولى الدفاع عن القضية.

لقد علّق كثيرون على الحادثة الأليمة، وتوالت الرسائل من كافة أرجاء الوطن وأنحاء العالم الإسلامي تهنئ الشيخ على سلامته، وكتب أعضاء الجمعية عن الحادثة كالشيخ

[٣٤] أحمد حماني، صراع بين السنة والبدعة، دار البعث، قسنطينة، الجزائر، ط١ ١٤٠٥ هـ ١٩٨٤ م، ج١/٩٣ وما بعدها.

الإبراهيمي الذي قال: «وإذا نسي الناس فإنهم لم ينسوا حادثة الاعتداء على الأستاذ عبد الحميد بن باديس الذي هو رئيس هذه الجمعية منذ تأسست إلى اليوم، فقد تآمر العليويون على اغتياله حيث ثقلت عليهم وطأة الحق الذي كان يقوله ولا زال يقوله فيهم وفي أمثالهم، وانتدب أشقاها لقتله في قسنطينة وضربه الضربة القاضية لولا وقاية الله ولطفه، ففي ذلك المشهد الذي تطيش فيه الألباب وتنفشى فيه روح الانتقام قوى الله الأستاذ - وهو أعزل - فأمسك خصمه الفاتك المسلح ولببه بثيابه، ثم تجلى على قلبه المطمئن بالرحمة فقال - وجرحه يثعب دما للجمهور المتألب المتعطش لدم الجاني: (إياكم أن يمسه أحد منكم بسوء) حتى تسلموه للمحافظة، ولولا هذه الكلمة لقطعوا الجاني إربا إربا».[٣٥]

وهذه الحادثة توثق موقفا من مواقف الصدام بين الطرقيين والشيخ ابن باديس، وحتى لو كانت الحادثة من تخطيط الاحتلال الفرنسي إلا أن الطريقة العليوية لم تعلّق كثيرا على الحادثة، بالرغم من صدور الأعداد الأولى لجريدة «البلاغ» في ذلكم الوقت كما يقول الشيخ حماني.

• الانشقاق عن جمعية العلماء

تعود خلفيات الانشقاق الذي حدث في جمعية العلماء المسلمين، إلى حادثة ٢٣ ماي ١٩٣٢م في نادي الترقي، والتي حاول فيها الطرقيون – حسب قول السعيد الزاهري - تغيير الانتخابات والاستيلاء على الجمعية، لكن المخطط فشل وكانت الغلبة للإصلاحيين داخل الجمعية،[٣٦] وهي نفس الحادثة التي أرخ لها الشيخ الإبراهيمي والمنشورة في آثاره.[٣٧] أما الشيخ أحمد توفيق المدني فإنه يروي جانبا آخر من الصراع داخل الجمعية، أسهم بشكل كبير في انشقاق الطرقية عن جمعية العلماء، ويقود هذا الصراع الطيب العقبي؛ الذي كان حادا تجاه الطرق الصوفية، وألقى محاضرات ضدهم، وضد رجالهم، ممعنا في محاربتهم وفي أذاهم وذلك خلاف صريح لمنهاج جمعية العلماء الأول.[٣٨]

لقد أسهمت هذه الخلافات في تعميق الهوة بين الطرقية والإصلاحيين داخل الجمعية، وكانت سببا في الانشقاق عنها وتأسيس «جمعية علماء السنة» في ١٥ سبتمبر ١٩٣٢م، وقد علق ابن باديس على هذا الانشقاق قائلا: «فرّوا من الجمعية وناصبوها العداء، واستعانوا عليها بالظلمة ورموها بالعظائم وجلبوا عليها من كل ناحية بكل ما كان

[٣٥] أحمد طالب الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط١ ١٩٩٧، ج١/٢٦٨.

[٣٦] نور الدين بولحية، جمعية العلماء المسلمين والطرق الصوفية وتاريخ العلاقة بينهما، دار علي بن زيد، بسكرة، الجزائر، ط١ ٢٠١٥، ص ١٤٥ وما بعدها.

[٣٧] أحمد طالب الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج١/١٨٨.

[٣٨] أحمد توفيق المدني، حياة وكفاح، دار البصائر الجديدة، باب الزوار، الجزائر، ط ٢٠١٣، ج٢/٢٢٤.

عندهم من كيد، ذلك لأنهم وجدوا كثيرا من الآفات الاجتماعية التي تحاربها الجمعية هم مصدرها، وهي عيشهم، ووجدوا قسما منها تغضب محاربته سادتهم ومواليهم، وقد شاهدوا مظاهر الغضب بالفعل منهم، فما عارضتهم الجمعية ولا أبعدتهم ولكن هم أبعدوا أنفسهم».[٣٩]

٣. هل كان تعامل ابن باديس ظرفيا؟

اختلف الباحثون في تفسير المواقف المتباينة للشيخ ابن باديس، ولعل الاختلاف ناشئ عن التوجهات الفكرية، فمن كان سلفيا فسّر مواقفه بما يخدم القطيعة بين الشيخ والتصوف، ومن كان صوفيا فسّر مواقفه بضغوط أعضاء في الجمعية عليه، وذهب آخرون إلى استنتاجات أخر.

لقد تبنى أتباع التيار السلفي فكرة أن الشيخ ابن باديس قد نشأ نشأة طرقية، وأنه تخلّص من طرقيته سنة ١٩٢٥، وأنه خطابه تغير بين سنة ١٩٢٥ و ١٩٣٨م، وأنه سلك مسلك المرحلية، وأخذ بالتدرج، والمرور على أطوار في الإصلاح والنقد، وأنه راعى في ذلك: خطورة الوضع ونفوذ الطرقيين، ومركز والده وعائلته، وأراد ألا يصادم الشيوخ حتى يخلّوا بينه وبين الأتباع.[٤٠]

وذهب الباحث عماد بن عبد السلام إلى رأي آخر وهو أن لابن باديس رؤيتين في التعامل مع الطرق الصوفية:

- رؤية دينية: من خلالها يدعو إلى تصحيح العقائد والرد على أهل البدع؛
- ورؤية سياسية: تسمح له التعامل مع كل المخالفين من الطرق الصوفية وأهل البدع من أجل القضية العامة. وهذا التعامل السياسي لم يكبحه يوما من مواصلة نقدها وتبيين زلاتها وضلالها في العقيدة والسلوك.[٤١]

والذي يظهر لي – والله أعلم – أن مواقف ابن باديس رحمه الله يجب أن تفهم وفق سياقات متعددة؛ حتى يتسنى لنا فهمه واستيعاب منهجه، وهذه السياقات هي:

- سياق التطور الفكري: وهذا السياق يجعلنا نفهم أن ابن باديس قد عرف تطورا في أفكاره، وأن التجارب لابد وأنها أكسبته الكثير من القناعات، وأن تجربة الإنسان الفردية في الإصلاح لا شك أنها تختلف عن تجربته ضمن الجماعة، وأن تفكير الإنسان وفق مقتضيات زمن تختلف وفق زمن آخر، ومن هذا يمكننا أن نفهم نشأة ابن باديس الطرقية، ثم نفهم قوله: «عرفت شيوخ الطرق أوقاتًا ، ثم فارقتهم بتاتًا ، وما

[٣٩] عمار طالبي، آثار ابن باديس، ج٣/٥٤٩

[٤٠] سمير سمراد، مواقف المصلحين الجزائريين من رسوم المتصوفين وأوضاع الطرقيين، ص ٩٦، ٩٧.

[٤١] مقال لـ: عماد بن عبد السلام.

عرفتهم – علم الله – إلا لأخدم معهم الجزائر بالإسلام والعربية أو أعمل معهم في سبيل الإسلام والعربية والجزائر، وما فارقتهم حتى عرفت منهم أنهم مذهوب بهم في غير هذه السبيل»،[٤٢] وان كنت لا أرى تغييرا كبيرا لكن يمكن ملاحظة عدم انتسابه لأي طريقة، وعدم تقريظه لأي كتاب في كتب الصوفية في أواخر حياته – فيما أعلم -.

- سياق القناعات الشخصية: وهنا يمكننا أن نلحظ فيه قناعات ابن باديس تجاه مسائل التصوف، وهي القناعات التي ضمنها مقالاته وكتاباته، ومن خلالها نفهم حقيقة الرؤية الباديسية للتصوف وللطرق الصوفية، من وجهة نظره، ووفق قناعاته التي لم تكن رهنا لأحد، وعبر عنها بجرأة رغم مخالفتها حتى لبعض آراء من كان معه في الجمعية. ورغم مصادمتها لبعض الطرق الصوفية.
- سياق التعامل مع المخالف: وان كان المخالف هنا أخا في الدين لكنه خلاف قناعات، وهذا السياق يجعلنا نقسم منهجه في التعامل إلى منهجين: (١) المنهج الدعوي: وفيه يظهر ابن باديس داعيا إلى الإصلاح، وصاحب مشروع للتغيير، وهو ما يقتضي اللين، والتغاضي عن بعض الأمور، وادراك فقه الأولويات، وهو ما يفسر لنا تعاملاته الراقية مع أتباع الطرق الصوفية، مثلما رأينا من موقفه مع والد الشيخ محمد العيد آل خليفة. و(٢) المنهج السياسي: وهو الأبرز هنا، والذي مارسه ابن باديس بكل حنكة وذكاء، وأبان عن رغبة منه في الاجتماع على محاربة الاحتلال، بالرغم من المتناقضات التي كانت حوله، والتي لم تستغ فكرة الائتلاف، وقد عبر عن ذلك في أكثر من موضع، من مثل قوله: «من المحال أن يضيق صدر الجزائر عن فكرتين أو مذهبين دينيين إذا كان الجميع يعمل لخيرها، وأبقوا على طريقتكم، وكونوا مستقلين مثلنا، ودعوا الإدارة لشأنها، وتعالوا نعمل يدا واحدة، لا أقول لكم كونوا أعداء للإدارة ولا كنّا نحن أعداء لها، وانما أقول لكم: لا تكونوا كما لم نكن آلة في يد أحد، إنني قلت وكتبت مرارا أن كل شيخ طريقة يتقدم لخدمة الإسلام والعربية مستقلا بوحي ضميره، فإنني أمد له يدي وأعمل معه وله عهد الله على ذلك».[٤٣]

بهذه السياقات يمكننا أن نفهم نصوص الشيخ، كما نتفهم الظروف التي دعته إلى سلوك هذا السبيل، وأنه كان يجابه رحمه الله عقبات كؤود، وكان يزيحها من طريقه بكل تؤدة واطمئنان، غير آبه بالنتائج كما يأبه ببذل الجهد واتخاذ الأسباب.

٥. الخاتمة والتوصيات

بعد هذا البحث في فكر الشيخ عبد الحميد بن باديس الصوفي، والذي تطرقت فيه إلى العلاقات التي كانت تربطه بشيوخ التصوف، ثم مواقف الوئام والاحترام ومواقف

[٤٢] آثار الإمام عبد الحميد بن باديس رئيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، مطبوعات وزارة الشؤون الدينية، ج٦/٣٠٤ نقلا عن أنيسة زغدود، إسهامات ابن باديس في تجديد العقيدة، ص ٣٧٧.

[٤٣] آثار الإمام عبد الحميد بن باديس رئيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، مطبوعات وزارة الشؤون الدينية، ج٦/٣٠٥ نقلا عن أنيسة زغدود، إسهامات ابن باديس في تجديد العقيدة، ص ٣٧٩.

الإنكار والصدام، خلصت إلى أن الشيخ ابن باديس قد تأثر في نشأته بالصوفية، ذلك أن البيئة العامة التي كانت تعيشها الجزائر هيمنت عليها الطرق، فكانت واحدة من الروافد الروحية التي نهل منها، لكن الواقع الذي آلت إليه تلك الطرق قبيل الاحتلال الفرنسي وبداياته، هو ما جعل ابن باديس يتعامل مع ذلك الواقع بحكمة، فميّز بين الحقيقة الصوفية، وبين الخرافات التي امتزج بها أصحاب السلوك، والتي استغلها الاحتلال لصالحه ولتخدير الشعب.

لقد خلصت الورقة البحثية أيضا إلى أن الشيخ ابن باديس كان له تعاملات ودّية مع كثير من شيوخ التصوّف، وكانت بينه وبينهم مراسلات، وإجازات، وزيارات، واستشارات فقهية، لكن جرأة الإمام فيما يراه صوابا جعلته يبدي رأيه بكل وضوح فيما يتعلق بالانحرافات. ولعل القارئ لآثار الإمام يستشكل فهم مواقفه المتناقضة من الطرق الصوفية، وهو ما أجبنا عنه بضرورة فهم السياقات التي كتبت فيها تلك النصوص، وسجلت فيها تلك المواقف: سياق التطوّر الفكري، سياق القناعات الشخصية، وسياق التعامل مع المخالف.

وفي الأخير يحسن التوصية بتعميق البحث في فكر الشيخ ابن باديس الصوفي، إذ لا تزال الكثير من القضايا تحتاج إلى دراسة. وكذا الاستفادة من منهجية الشيخ في التعامل مع واقعه، وطريقة تغييره للقناعات. كما نوصي بإعادة طبع أعمال الشيخ ابن باديس وفق المواضيع، مما يعطي نظرات جديدة لجهد الشيخ العلمي والفكري.وطبع الدراسات والأبحاث المتعلقة بفكر الشيخ ابن باديس التربوي والصوفي. وتنظيم الندوات التي تبحث علاقات التأثير والتأثر بين رواد الفكر الإصلاحي والتجديد.

BIBLIOGRAPHY

Bellakhḍar, Khūlī, et al., *Muqāwamat al-Ḥaj Mūsā ibn al-Ḥasan al-Madanī al-Darqāwī,* Algeria: Dār al-Jalfā, 2017.

Bennābī, Mālik, *Mudhakkirāt Shāhid ʻalā al-Qarn,* Algeria: Dār al-Waʻy lil-Nashr wa al-Tawzīʻ, 2013.

Būkuʻbur, Taqiy al-Dīn, and Daḥḥū Faghrūr, *Risālat al-Shaykh ʻAbd al-Raḥmān al-Dīsī ila Shaykh ʻAbd al-Ḥamīd ibn Bādīs,* Majallat al-ʻUlūm al-Insāniyyah, Oran University, vol. 5, no. 2.

Būleḥyah, Nūr al-Dīn, *Jamʻiyat al-ʻUlamāʼ al-Muslimīn wa al-Ṭuruq al-Ṣūfiyyah wa Tārīkh al-ʻAlāqāt baynahuma,* Algeria: Dār ʻAlī Bin Zīd, 2015.

Ḥammadī, ʻAbdullāh, *Dirāsāt fi al-Adab al-Maghribī al-Qadīm,* Algeria: Dār al-Baʻth, 1986.

Ḥammanī, Aḥmad, *Ṣirāʻ Bayna al-Sunnah wa al-Bidʻah,* Algeria: Dār al-Baʻth, 1984.

Al-Ibrāhīmī, Aḥmad Ṭālib, *Āthār al-Imām Muḥammad al-Bashīr al-Ibrāhīmī,* Beirut: Dār al-Gharb al-Islāmī, 1997.

Jarīdat al-Balāgh al-Jazāʼirī (issued by al-Zāwiyah al-Ilʻalīwiyyah), vol. 1, 18 Safar 1348H/26 July 1929.

Jarīdat al-Muntaqid (issued by Shaykh Ibn Bādīs), vol. 13, 24 September 1925.

Al-Madanī, Aḥmad Tawfīq, *Ḥayāt Kifāḥ,* Algeria: Dār al-Baṣāʼir al-Jadīd, 2013.

Majallat al-Shihāb (issued by Shaykh Ibn Bādīs), Beirut: Dār al-Gharb al-Islāmī, 2001.

Al-Raḥmān, Bin Būzayyān ʻAbd, "Al-Ziyārāt al-Tārīkhiyyah lil-Shaykh ʻAbd al-Ḥamīd ibn Bādīs li Tilimsān wa Atharuhā fi al-Ḥarakah al-Iṣlāḥiyyah 1923-1937", *Majallah ʻUṣūr al-Jadīdah*, vol. 22, no. 6, 2016.

Saʻdullāh, Abū al-Qāsim, *Tajārub fi al-Adab wa al-Riḥla,* Algeria: al-Muʼassasa al-Waṭaniyya li al-Kitāb, 1983.

----, *Tārīkh al-Jazāʼir al- al-Thaqāfī*, Algeria: Dar ʻĀlam al-Maʻrifah lil-Nashr wa al-Tawzīʻ, 2017.

Samrād, Samīr, *Mawāqif al-Muṣliḥīn al-Jazāʼiryyīn min Rusūm al-Mutaṣawifīn wa Awḍāʻ al-Ṭuruqyyīn,* Algeria: Maktabah al-Adab al-Jazaʼiriy, 2018.

Al-Ṣayd, Sulaymān, *Tārīkh al-Shaykh ʻAlī ibn ʻUmar Shaykh Zāwiyah Tūlqah al-Raḥmāniyyah,* Algeria: Dār Humah Ṭibāʻah wa al-Nashr

wa al-Ṭawzī‘, n.d.

Al-‘Ūbaydī, al-Ṭāhir*, al-Naṣīḥah al-‘Azẓūẓiyyah fi Nuṣrat al-Awliyā’ wa Ṣūfiyyah wa Naṣīḥat al-Shabāb al-Mūriḥah lil-Suḥb wa al-Ḍabāb*.

Ṭālbī, ‘Ammār, *Āthār Ibn Bādīs,* Algeria: al-Sharikah al-Jazā’iryyah, 1997.

Al-Ṭaybī, Muḥammad, “al-Ru’yah al-Khaldūniyyah lil-Mashyakhah al-Ṣūfiyyah: Dirāsah fi al-Ṣulṭān al-Rūḥī ‘inda Ibn Khaldūn”*, Master Thesis*, Algiers University, Algeria, 2008-2009.

Zaghdūd, Anīsah, “Ishāmāt ibn Bādīs fi Tajdīd al-‘Aqīdah”, Ph.D. Thesis, Batna University, Algeria, 2012-2013.